المواعظ الحامدية

من مؤلفات العارف بالله تعالى

سيدى سلامة بن حسن الراضى

شيخ ومؤسس الطريقة الحامدية الشاذلية



الطرق المتصوفة

اعلم وفقني الله وإياك أن الطرق المتصوفة هي الظاهرة بمظهر الصوفية التي يتنزه أهلها عن طريق المطاوعة ، ويرون أنهم علي قدم السادة الصوفية وأنهم قائمون بشعائر الطريقة المحمدية ، ومتمسكون بالسنة السنية ، وأنهم سائرون إلي الله تعالي علي نهج أسلافهم ، ولذلك تراهم يتشبهون بهم ويظهرون بمظهرهم في الكلام واللباس وتبقيه اللحية وإحفاء الشوارب والتطيب والتدهن ووضع السواك في العمامة ، إلي غير ذلك من نحو محافظتهم علي بعض الأوراد وإقامة الأذكار صبحاً ومساءً ، وأهل هذه الطرق أحسن حالاً من أهل الطرق المطوعية ، ويوجد فيهم الرجال الصالحون وبعض المتمسكين بالكتاب والسنة وبعض التمسك ، ولكنهم تركوا كثيراً من أحوال أهل الطريق واستغني غالبهم بما يحفظه من بعض المسائل الفقهية وعقائد التوحيد وما يتلقفه من بطون الكتب والأوراق ، من آداب السادة الصوفية في الأخلاق وفي السير إلي الله تعالي ، تصدروا إلي التسليك والتوصيل

إلي الله تعالي قبل تربية نفوسهم ، فيظهر أحدهم بمظهر المشيخة ويجعل له ميعاداً أي حضرة في زاوية من الزوايا ويأخذ العهود علي المريدين ويظهر لهم أنه هو المرشد الكامل الذي ينبغي أن لا يقول التلميذ له لم ولو بقلبه وأن من قال ذلك لم يفلح قط ، ويطالب إخوانه بأن يتأدبون معه من الجلوس بين يديه سكوتاً مصيخين لكلامه .

ولما لم يكن الشيخ قد تربي في بدء أمره ، لم يعرف كيف يربي إخوانه ومطالبته لهم بالتأدب في حقه لم تكن بعد تربيتهم ، فلذلك لا تجدي نفعاً ولا تأتي بفائدة إذ أن تلامذته يرون الشيخ غارقاً في طلب الدنيا متكالباً عليها متحايلاً في تحصيلها يسلك لها كل مذهب ولا يدع طريقة توصلها لها إلا سار فيها ، ولا يشاهدون منه آثار ما يقوله في نفسه ويجدونه غير قائم بحقوق الطريق ولا شعائرهم ، فهم يقلدونه في أقواله وأفعاله وتذهب حرمته من قلوبهم ويصير الشيخ معهم كبعض الأصحاب فلا ينتفعون به ، ولا يغرنك قولهم شيخي قطب ، شيخي من أكابر الأولياء أو العارفين أو المحققين ، فإن ذلك لا يغني من الحق شيئا . وما فائدة قوله شيخي من العارفين وهو لا يحترمه ولا يتأدب معه بآداب العارفين ،مع أنهم قالوا رضي الله عنهم : ليس التلميذ من يفتخر بشيخه وإنما التلميذ من يفتخر به شيخه . وإذا كان التلميذ يظهر النسبة لأهل الطريق زورا وبهتانا ، ومع ذلك تراه يلبس الذهب في أصابعه ويعلق له ساعة وحبلا من الذهب ، ويلبس اللباس الفاخر علي الطراز الأفرنجي الأخير الذي يشهرونه (بالموضة) ومن الكساء المشهور بالشاكتة الذي لا يستر الإليتين ، وتجد الشاب الأمرد الجميل إذا لبسها وركع أو انحط برأسه إلي الأرض ليتناول شيئا بدت اليتاه متشكلتين ، فضلا عن ضيق اللباس المشهور بالبنطلون ضيقا شديدا ، حتى أنك تجده لاصقا بجسمه أو أنه عين الجسم . والعجب من هذا ! كيف يكون حالهم إذا صلى فإنه يغلب علي الظن أنه إذا ركع أو سجد يتمزق ذلك البنطلون وتبدو سوأته . فلذلك رأيت كثيرا منهم إذا ركع لا يتمكن من الركوع ، وإذا سجد لمس الأرض لمسا خفيفا بيديه وجبهته ، ويسرع في ذات اللحظة بالقيام ، وهذا مبطل للصلاة لأنه لم يعتدل ولم يطمئن وهما فرضان قد تركهما .

ثم يلبس أحدهم قميصا له رقبة يركبونها عليه مرتفعة إلي ذقنه ، حتى إذا أراد أن يلتفت لا يتيسر له ، ويضع له في صدره من الماس دبوسا . ويمسك عصا لها يد من الفضة يحملها في يده زهوا وعجبا ، يهزها أو يديرها أو يمسكها من وسطها تشبها بالإفرنج ، ويجلس علي القهوات التي يجتمع فيها البار والفاجر ، ويلعب الطاولة أو الضامة ويشرب الشراب المشهور بالبيرة ،وهي خمر مسكر بلا شك ويقول إنها حلال كذبا وزورا وافتراء علي الله عز وجل . وإذا غلب أحدهما في اللعب شربا شيئا بدارهم من المغلوب وهو ميسر بلا شك . وربما كان ذلك المحل قد أعد لشراب الخمر وصاحبه من الإفرنج ، ومع ذلك تفوته الصلوات ، وبعد ذلك إما أن يجمعها وإما أن يتركها ، وربما قام من ذلك المحل إلي الزاوية وذكر الله مع إخوانه والشيخ لا يحاسبه علي شئ من ذلك ، بل ربما إذا وجده موظفا في إحدى دوائر الحكومة أو كان تاجر غنيا ، قربه وصرف إليه وجهه ، وبش في وجهه اغترارا بزيه واحتراما للباسه . ومع ذلك ترى هذا التلميذ يعد نفسه من أهل الطريق وينافس غيره ، ويعلو صوته عليه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومنهم من يتجنب غالب هذه الأفعال ويقرأ أوراد الطريق التي عينها له شيخه ويلازم الزوايا ، ويصلي الصلاة المفروضة ، ويجتنب غالب المعاصي الظاهرة ، ويتمسك بشئ من السنة مما تقدم ذكره ، من تبقية اللحية ووضع السواك في العمامة ، وغسل الجمعة والتطيب والتدهن والتكحل ، ولبس الأبيض من الثياب وإرخاء العذبة والتفقه في بعض مسائل الدين ، ولكنه لم يبال بغيبة أحد من المسلمين ولا الوقيعة في أعراضهم ، فيعيب هذا أو يذم هذا ، وتجده يعادي الناس ويشاجرهم بل ويحتقرهم ويوذيهم ولم يعد هذا من الأشياء التي تقطعه عن ربه وتظلم قلبه .

ونجد أحدهم يجازف في الفتوى ويفتى بغير علم ، مع أن الشرع قد أخبرنا أن من أفتي بغير علم لعنه الله والملائكة والناس أجمعين ، وما حمله علي ذلك إلا حفظ بعض مسائل في المذهب أو شئ من عقائد التوحيد الذي حرره علماء الرسوم ، ومن رد عليه قوله نهش عرضه وبادره بالسب والشتم وسوء الأخلاق ، مظهراً بذلك فضله عليه بما أوتيه من علم الدين .

وهؤلاء وإن كانوا علي بعض الخير الظاهري ، فإنهم أفسدوا أكثر مما يصلحون ، وإثمهم أكبر من نفعهم ، لأنهم اعتنوا ببعض الأمور التي يسهل العمل بها ، وأهملوا الأركان التي يبني عليها العمل ، وما هي الفائدة التي تعود علي السالك من حفظ القرآن وكثرة تلاوته ؟ ، والاكباب علي مطالعة العلم والتفقه فيه ؟ ، وكثرة ذكر الله تعالي ؟ ، وفعل بعض ما ورد في السنة من اللباس أو السواك ؟ ، مع ما هو متصف به من الأخلاق السيئة ، والمنافسة والغيبة واحتقار الناس ورؤية نفسه عليهم ، والتظاهر ببعض مسائل الفقه والتوحيد .

وليس الطريق إلي الله تعالي بالاقتصار علي ذلك ، إنما الطريق بتربية النفس من مذام الصفات المبعدة عن حضرة القدس والكمال .

ولقد علمت قبل هذا أن علم التصوف يعرف به كيفية علاج النفس وتطهيرها من المعاصي الظاهرة والباطنة والخواطر فكيف يدعي هؤلاء التصوف ولم يسعوا في خلاص نفوسهم وتطهيرها مما فيها من سوء الخلق والرذائل ، بل سعوا في تقوية شهواتها بحفظ القرآن والتفقه في الدين وفعل بعض ما ورد من السنة مما يظهر للناس ، فإن كل ذلك مما يزيد النفس كبراً وعلوا لما يتميز به عند العامة ، والإشارة إليهم بالأصابع ، والنظر إليهم بعين التعظيم وتقديمهم للإمامة .

وأعلم أن طلب العلم قد رغب فيه الشرع وهو فرض علي كل مسلم ومسلمة ، ولكن يترتب وجوبه بحسب الأحوال ، وحينئذ يجب تقديم العلم الأهم بحسب الوقت الذي أنت فيه ، فمن أسلم بدأنا بتعليم عقائد التوحيد الإجمالي ، ثم تعلم العبادة ، إذ أن من تعلم العبادة ، وعبد ربه ولم يكن عالماً بعقائد التوحيد فإنه يعبد من لا يعرفه ، وإذا عرفت أن العلم يترتب وجوبه بحسب الأحوال فمن أراد أن يسير في طريق الله تعالي وكان جاهلاً بالضرورة الذي لا بد منه في الدين وجب علينا أن نعرفه عقائد التوحيد إجمالاً ، فإن كان من أهل السذاجة ويقينه صافياً من الشبه علمناه العقائد سرداً كما ورد عن الله ورسوله ، مثل عقيدة ا؟لإمام الغزالي الشهيرة ، كأن تقول

له : تعتقد أن الله سبحانه وتعالي موجود قديم بلا أول ، باق بلا نهاية لا يشابه خلقه ولا يحتاج إلي غيره ، بل كل ما سواه مفتقد إليه ، واحد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له ، وأنه لو كان له شريك لفسدت الخلق ولذهب كل إله بما خلق ، قادر أوجد الأشياء من غير معين أعانه علي خلقها وكل الخلق دلائل علي قدرته وآثار أفعاله .

قهر العباد بالموت وكلهم في قبضته وهو سبحانه قد أراد كل شئ وقع أو سيقع في ملكه ، فما في الكون من شئ إلا وهو علي وفق إرادته ، ولم يكن عاجزاً حتى يكون مكرهاً علي ما أراده عليم بذاته وصفاته وجميع خلقه من غير سبق خفاء ، فلا تتحرك نملة سوداء في ليلة ظلماء علي صخرة صماء إلا وهو يعلم بها ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)) ، حي لا يلحقه فناء ، بل هو سبحانه سرمدي أبدي لا شريك له ، سميع بصير يسمع كل الكائنات ويبصرها بغير حدقة ولا آذان ولا صفة من صفات الحوادث ، متكلم بكلام أزلي أبدي هو صفته ، وكلام الله ليس بمخلوق ولكنه محفوظ في قلوبنا ، مقروء بألسنتنا مسموع بآذاننا ، ولا يخرج ذلك كلام الله علي كونه صفته ، والله قد تعالي عن صفات الحوادث يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء ((ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)) .

فإذا حفظ عقيدة علي هذا النمط وعرف معناها بغير تعمق ولا إيراد شبه فذلك يكفيه ، ولا يكدر الشيخ عقيدة تلميذه بشئ من الشبه ولا بمذاهب المعتزلة ولا غيرهم ـــ وإن كان التلميذ قد حفظ بعض الشبه قبل مجيئه للشيخ فليأمره الشيخ بحفظ عقيدة كعقيدة الباجورى المشهورة ، ثم يعرفه الشيخ المعني بعبارة متوسطة ، ويراعي أنه يزيل ما عند التلميذ بأن يحجبه عنها علي مذهب أهل السنة والجماعة ، ولا يقف مع العبارة المشهورة عن علماء الرسوم ، بل يجعل عمدته في ذلك الكتاب والسنة واعتقاد جمهور الصدر الأول والسلف الصالح من هذه الأمة ، فإن الخير كله في ذلك ، وليلزم ما كان عليه أصحاب الرسول e وليتباعد عن مذاهب أهل الضلال والأهواء ، والاتباع خير من الابتداع ، وإن ألجأته الضرورة إلي القول بمذهب الخلق الذين يلزمون التأويل فليكن بمقدار رد الخصم ، والاستمرار علي مذهب السلف أولي .

وكل ما أطلقه الحق علي نفسه نؤمن به كما ورد عن الله ورسوله ، ونكل علمه إلي الله مع اعتقاد التنزيه ـــ فإذا تعلم التلميذ عقيدة التوحيد علي ما وصفناه ، فإنه لا يحتاج في تعلمها إلي كثير من الزمن ، بل يكفيه فيها أسبوع و الأسبوع كثير ـــ وهذا هو العلم الضروري من التوحيد ـــ ثم يعلمه بعض مسائل الفقه في المذهب بأن يأمره بحفظ كتاب صغير يشتمل علي الطهارة والصلاة والصوم بعبارة ضيقة ، ويكفيه أن يتعلم الماء المطلق والمتغير ، وإزالة الخبث وتطهير الحدث ، ثم يعرف من الوضوء والغسل والصلاة فرائضها ومسنوناتها ، ومستحباتها ومبطلاتها ومكروهاتها ، وسجود السهو والإمامة ، ويعرف من الصوم ما يجب علية وما يبطله وما فيه من الكفارة ، والصيام المفروض والمستحب والمكروه والمحرم ، وهذا القدر من الفقه يكفي لتعلمه شهر من الزمان أو شهران ، وإذا تعلم التلميذ ما أشرنا إليه من غير بحث ولا جدال ، كان هذا القدر من الزمن كثيراً ، وبعد ذلك يبدأ الشيخ بتربية ذلك التلميذ فيأمره بأن لا يتهاون بالصلوات ، وأن يتجنب المعاصي الباطنة كالحقد والحسد

والرياء ، ثم يأمره بأوراد الطريق ويحثه علي الملازمة عليها ، ويعرفه آداب التلميذ مع الشيخ ومع إخوانه ومع الخلق .

ثم تنقسم الطريق هنا قسمين : تبرك ـــ ، وإرادة .

فطريق التبرك : يكفي فيها تعلم الفقه والتوحيد وما مر ذكره من فعل الطاعات واجتناب المعاصي ، ويفي مريد التبرك أن يكون محباً لشيخه وإخوانه ، حسن الظن بهم متعلقاً قلبه بقلوبهم ، سليم الصدر فاعلاً لما أمره الله مجتنباً لما نهاه ، لا يؤذي أحداً ولا يغتابه ولا يذمه ، يجتمع غالب أحيانه بإخوانه وشيخه لا ينقطع عن زيارتهم إلا لضرورة ، قليل اللهو ، محباً للفقراء والمساكين ، لا يتعالى علي الناس بأقواله ولا أفعاله ولا يحتقر أحداً منهم ، غير سباب ولا لعان ولا فحاش بل يعفو ويصفح ، ولا يقابل السيئة بالسيئة بل يقابل السيئة بالحسنة ، فإن دام علي ذلك فقد وفي طريقه ولا يذم عند أهل الطريق فإن قصر عن شئ من ذلك رده الشيخ إلي الحق وإلي ما يحبه الله ، ولا يحاسبه أزيد مما تقتضيه طريق التبرك ، فلا يكون بمثابة مريد الإرادة ، وإن غالب أهل الطريق في هذا الزمن لو من الله عليهم بأن يكونوا من أهل التبرك لكانت منة الله عليهم عظيمة .

وأما طريق الإرادة : فهي أن يلقي التلميذ بنفسه بين يدي شيخه ، ويسلم له قيادة ويكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كما يشاء ، ولا يعترض عليه بقلبه ولسانه ويسلم له في كل ما يراه منه ، ولو كان ذلك علي غير ظاهر الشرع ، فإن الشيخ أوسع علماً ومادة وأكثر خشية لربه وأزيد معرفة بالله ، وربما يمكر بالمريد أو يختبره فيظهر له أموراً يخيل للرائي أنها منكره في الشرع ، ولو ظهر للتلميذ وجهها لعرف كيف يتناولها من كتاب الله وسنة رسوله ، فربما رأي التلميذ شيخه لا يصلي الجمعة في قرية وشيخه مقلد لمذهب الإمام الشافعي أو الإمام مالك ، فيسئ المريد ظنه بالشيخ ، ويقول في نفسه أن الشيخ قد أساء في ترك صلاة الجمعة .

علي أن الشيخ ربما كان قد قلد الإمام الأعظم والمريد لا يدري ويقع التلميذ في الخطر باعتقاد السوء في شيخه ، وقس علي ذلك كثيراً من الأمور لها وجوه في الشرع صحيحة وتعتاص علي التلميذ فيظن في شيخه ما لا يجوز ، علي أنه يعلم أن الله لا يؤاخذه بذنوب الشيخ ((ولا تزر وازرة وزر أخري)) وكل شاة برجلها ستناط ((وأن ليس للإنسان إلا ما سعي)) ولا يسأل الله التلميذ عن ذنوب الشيخ .

ثم إن التلميذ لم يصحب الشيخ علي أنه معصوم ، والعصمة لا تكون إلا للأنبياء عليهم السلام ، ولعل الله قد أحب ذلك الشيخ فيوفقه لفعل شئ من أنواع القربات يكفر الله به تلك السيئات والإساءة لا تضر مع الحب ، ولعل الله قد جعله ممن يبدل الله سيئاتهم حسنات .

كلما قارف الذنوب أتته

توبة طهرته واستغفار

وفي قصة الخضر مع موسى ــ عليها السلام ـــ كفاية لمن يريد أن يكون مريد إرادة .

وبالجملة فمريد الإرادة يسلب إرادته للشيخ إذ أنه بذلك يتلقى الطريق من شيخه أقوالاً وأفعالاً وأحـوالاً ، فإن لم يكن كذلك فهو منازع للشيخ فيما يريده ، ومتى تنازعا كان كل منهما في طريـق ، وقـد نـازع تلميـذ شيخه الجنيد فقال له الجنيد : ((وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون)) .

وقد قالوا رضي الله عنهم :

ومن لم يكن سلب الإرادة وصفه

فلا يطمعن في شم رائحة الفقر .

وقالوا أيضاً رضي الله عنهم :

تكون مريداً ثم فيك إرادة

إذا لم ترد شيئاً فأنت مريد .

ولا بد لمريد الإرادة من أخذ آدابه وسيره من شيخه ، نفساً بنفس ، في كل أقواله وأفعاله وأحواله من دنياه وآخرتة ، فمن ادعي الإرادة وهو يؤثر محبة أهله أو ماله أو دنياه أو آخرته علي محبـة شـيخه ، أو كـان لـه مـن يصحب غير إخوانه ، أو كان يلقي علي شيخه المسائل العلمية معجباً بعلمه وفقه أو يراجع الشيخ أو يـسأله طالبـاً منه الجواب ، أو كان يتأخر عن شيخه ، أو بزهد في مجالسه ، أو يعرض عن مذاكرته لغـير ضـرورة شـديدة ، أو يتهاون بأمره ، أو يأكل كثيراً ، أو يمدح غير شيخه بين إخوانه ، أو يزور أحد من الأحياء من مشايخ عـصره ، أو يطلب العلم علي غيره ــ إلا إذا أمره السيخ من غـير طلـب منـه ـــ أو يـسترشد مـن الكتـب ، أو يـركن غلـي أهـل الغفلات والمداهنين والمتكبرين ويجالسهم ، أو يتزين في لباسه معجباً به ، أو يكثر من الجدل مع الخلق أو يتعـالى عليهم أو يحتقرهم ، أو ينافسهم في الدنيا أو يترك صحبة شيخه طلباً للزيـادة مـن الـدنيا وحرصـاً علـي الرفاهيـة وجمع المال ، أو يقرأ شيئاً عن غير أوراد شيخه ، فاعلم أن من اتصف بـشئ مـن ذلـك فهـو لم يـشم لطريـق الإرادة رائحة ، ولم يحسب من أهلها ، بل ربما لم يكن محسوباً من أهل طريق التبرك ـــ وقـد أطنبنـا الكـلام في هـذا لمـا نجده شائعاً في هذا الزمن من دعوى غالب الناس أنهم سائرون في طريـق الإرادة ، مـع أنهـم لم يتـصفون بـشئ مـن وصف أهلها ، بل ولم يوفوا بطريق التبرك .

وإذا علمت ذلك فلا بد للشيخ من إقامة ميزان الطريق علي مريد الإرادة ، فيحاسبه علي كلمـا وقـع منـه ، من تقصير أو إساءة أدب ولا يتجاوز لهم عنة هفواتهم .